

الفكر التداولي في كتاب سيبويه
Pragmatic Thought in Sibawayh's El Kitab

د. وهيبة بن حدو[‡]

تاريخ القبول: 2021.09.30

تاريخ الاستلام: 2021.03.07

ملخص: التداولية بحث يولي أهمية قصوى للشروط الخارج لغوية، والمتعلقة بالسياق والمقام والمتكلم ومقاصده وحيثيات الاستعمال والأفعال اللغوية، أو بعبارة التوليديين أصبحت جزءا من دراسة الإنجاز. وهذا البحث قديم تعود جذوره إلى الدراسات التنظيرية عند سيبويه والجاحظ، وأبي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وغيرهم، حيث ركز هؤلاء المنظرون على المرسل والمتلقي والرسالة وعملية التأثير والتأثر والقصد ونوايا المتكلم والفائدة من الكلام والإفهام، وفي هذا ملامح التداولية الحديثة.

لقد اهتمّ النحاة بالكلام وأثر المتكلم في إنشائه والمستمع في تلقيه، من هذا المنطلق سأخصص بحثي هذا للحديث عن الفكر التداولي في التراث النحوي ممثلا في شيخ العربية سيبويه الذي ركّز في مؤلفه "الكتاب" على عناصر تعدّ من أهمّ مجالات التداولية.

كلمات مفتاحية: سيبويه؛ التداولية؛ المتكلم والمخاطب؛ السياق؛ الأفعال اللغوية.

[‡] جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان. البريد الإلكتروني: benhaddouwahiba@gmail.com (المؤلف المرسل)

Abstract: Pragmatics is a research which gives a great importance to conditions related to context, speakers and their intentions, usage situations and linguistic acts

This research is ancient; its roots return back to theoretical studies in Sibawayh, El Jahid, Abou Hilal Al-Askari, Abdul Qaher Al-Jurjani, Sakaki and others. Those theorist concentrate on sender, receiver , message , impression and influence process; on these points features of recent Pragmatics may rely.

I shall specialize my research to speak about pragmatic thought in grammatical heritage represented in Arabic pioneer Sibawayh who concentrates in his book "El Kitab"

Keywords: Pragmatics; Sibawayh; Context; Linguistic Acts;

1. المقدمة: شهدت السّاحة الفكرية المرتبطة بالدرس اللّساني في القرن العشرين بزوغ عدّة نظريات دأبت كلّها على تناول الظاهرة اللّغوية وفق زوايا نظر متباينة و مختلفة، من أهمّ هذه النظريات النظرية التداولية التي تقوم على البحث في العلاقات التفاعلية بين النص وبين منتجه من جهة، وبين متلقيه من جهة أخرى، مع مراعاة مختلف العناصر المقامية المؤثرة في هذه العلاقات.

وهذا البحث قديم تعود جذوره إلى الدراسات التنظيرية عند العلماء العرب القدامى، من بينهم شيخ العربيّة الذي ركّز في مؤلّفه "الكتاب" على عناصر تعدّ من أهمّ مجالات التداولية منها: حديثه عن المستقيم الكذب، والمنكّم والمخاطب، والإسناد والمهمّة التكلّمية، والتوجيه والقصد، والإعراب على التعظيم والمدح والذمّ والشتّم والفخر والترحم والتذكّر، والسياق والتجوّز والاتساع، والاستعمال.

2. إرهافات التداولية في نحو سيبويه:

1.2 اللحن التداولي: اللحن أو الخطأ في اللغة هو خرق جانبها النحوي أو الصرفي ، و قد وصفه مسلمة بن عبد الملك بقوله: "اللحن في الكلام أقبح من الجذري في الوجه"¹ (ابن قتيبة، 1343هـ/1925م) إلا أن اللحن قد يشتمل على الجانب التداولي التكلمي، و قد كان سيبويه سباقاً في التنبيه إليه، حيث ذكر في "هذا باب الاستقامة من الكلام والإحالة" خمسة أقسام للكلام معتمداً في ذلك على مناسبة مقال الخطاب لمقامه: "فمنه مستقيم حسن، و محال و مستقيم كذب، و مستقيم قبيح، و ما هو محال كذب... و أما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، و شربت ماء البحر و نحوه."² (سيبويه، 1408هـ/1988م) فحكم سيبويه على أحد أنماط الكلام (حملت الجبل، و شربت ماء البحر و نحوه) بصفة **المستقيم الكذب** هو ما يسمى باللحن التداولي الذي تتعدم فيه شروط المطابقة بين النسبة الكلامية والنسبة الواقعية الخارجية والنسبة العقلية³ (إدريس مقبول، 2006م).

إنّ بنية الجملتين السابقتين مستقيمة نحويًا، "إلا أن العيب قد دخلها من جهة الدلالة في عدم تقبل العقل لها، و تحققهما في الواقع، لكن سيبويه في هذا القسم الذي أطلق عليه المستقيم الكذب، يحصر دلالة تأويل النص في سياقه الداخلي، و إدراكه العقلي، فلا يمكن أن يتصور إنسان مقدرة إنسان آخر على حمل جبل، أو شرب ماء البحر"⁴. (أحمد فهد صالح شاهين، 2015م).

إن حمل المصطلح السيبيوي "المستقيم الكذب" على أنه وجه من وجوه اللحن المتعلقة بالتداول لا يتنافى مع فهم أحد الدارسين للكتاب من المستشرقين، وهو العالم كارتر (M. Carter)، الذي توقف ملياً عند هذه المصطلحات خاصة في بابها المعروف ليربطها من جانبها بعلم الكلام والأخلاق الإسلامية والسلوك.

2.2 الإعراب التداولي: إن الناظر في كتاب سيبويه يتبين "بما لا يدع مجالاً للشك أن المصطلح النحوي عنده والصناعة النحوية لم تكن بمعزل قط عن المعاني، بل إن المصطلح دال على المعنى بلفظه، فالمصطلحات النحوية والأبواب دوال على معانيها قبل متابعة النظر في مضمونها"⁵ (العلولا منيرة بنت سليمان، 1993م)، والدليل على ذلك ما ورد في الكتاب من إعراب يكاد لا يخلو من أسباب وصلات مع المستوى التداولي. نذكر على سبيل المثال:

1.2.2 التعظيم والمدح: جاء في (هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمدح): "ومثل ذلك قول الله عز وجل: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾"⁶ (سورة النساء 162)، فلو كان كله رفعا كان جيدا، فأما (المؤتون) فمحمول على الابتداء"⁷ (سيبويه، 1408 هـ/1988م)، ويعرب سيبويه (المقيمين) المنصوبة على التعظيم والمدح.

إن الملاحظ أن سيبويه لا يذهب في إعراب محل الشاهد على النصب (المقيمين) على الاختصاص كما ذهب إلى ذلك الزمخشري⁸ (الزمخشري 1415هـ) ولكنه يذهب مذهباً تداولياً فيختار الإعراب على التعظيم والمدح لأن المقام مقام ثناء على المؤمنين.

2.2.2 الذم والشتم: جاء في (هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه): "وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا ﴿وَأَمْرَاتُهُ حَمَالَةَ الْحَطَبِ﴾"⁹ (سورة المسد، 4)، لم يجعل الحماله خبراً للمرأة، ولكن كأنه قال: أذكر حمالة الحطب شتما لها، وإن كان فعلاً لا يستعمل إظهاره"¹⁰ (سيبويه 1408هـ/1988م)، وإعراب الزمخشري لا يختلف عن سيبويه فهي بالنصب

على الشتم، وهي عنده بمكان للطف ما يختزنه النصب من معنى، ولهذا أعلن "وأنا أستحب هذه القراءة"¹¹ (الزمخشري، 1415هـ).

إنّ شرح سيبويه لقراءة هذه الآية بإضمار أذكر، لا يستند إلى إعراب جاف معزول عن مستوى التداول، بل يستند بالأساس إلى استنباط الدلالة من خلال المقام وفهم المخاطبين واستحضار الشروط التداولية لإنتاج وتأويل الخطاب.

3.2.2 الفخر والترحّم: نقل سيبويه في (هذا باب ينتصب فيه الخبر بعد الأحرف الخمسة انتصابه إذا صار ما قبله مبنياً على الابتداء) وهو عندنا باب إنّ وأخواتها، عن يونس رواية قال: "وزعم يونس أنّه سمع رؤية يقول: "أنا ابن سعد أكرم السعدينا)، نصبه على الفخر.¹² (سيبويه، 1408هـ / 1988م) فهذا النصب على الخلاف في "أكرم" مفيد لإنشاء داخلي يرد بعد ابتداء الجملة الخبرية، وإنّما يكون النصب دليلاً على الافتخار.

وجاء في (هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه): ومن هذا الترحّم، والترحمّ يكون بالمسكين والبائس ونحوه، ولا يكون بكلّ صفة ولا كلّ اسم، ولكن ترحّم بما ترحم به العرب ثمّ يورد بيتاً شعرياً:

فَأَصْبَحْتُ بِقَرْقَرَى كَوَانِسَا فَلَا تَلُمُهُ أَنْ يَنَامَ الْبَائِسَا

وبعربه على الترحّم، ويعني نصب "البائس"¹³ (سيبويه، 1408هـ / 1988م).

4.2.2 التذكّر: قد تعتري المتكلم في أثناء إنشائه للحديث حالة وهي التذكّر يقول سيبويه في (هذا باب وجوه القوافي في الإنشاد): "ويقول الرجل إذا تذكر ولم يرد أن يقطع كلامه (قالا) فيمد (قال) و(يقولو) فيمد (يقول) و(من العامي) فيمد (العام)، سمعناهم يتكلمون به في الكلام، ويجعلونه علامة ما يتذكر به ولم يقطع كلامه، فإذا اضطروا إلى مثل هذا الساكن كسروا.¹⁴ (سيبويه 1408هـ / 1988م).

فالتذكر استحضار لما يكون عليه المتكلم حال حديثه العادي حين تخونه العبارة أو تستعصي عليه الكلمة المطلوبة، فيضطر إلى التحايل عليها وجلبها من عمق ذاكرته بتلطف دون أن يقطع حديثه تماماً.

3.2 الإسناد والمهمة التكلمية: لقد عقد سيبويه في مقدمة الكتاب باباً سماه «باب المسند والمسند إليه» جاء فيه: "وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر. ولا يجد المتكلم منه بدا، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه. وهو قولك: عبد الله أخوك وهذا أخوك ومثل ذلك يذهب عبد الله. فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بد من الآخر في الابتداء."¹⁵ (سيبويه 1408هـ / 1988م) يشير نص سيبويه إلى علاقة الاقتضاء المتبادل التي تحكم المسند والمسند إليه، فهما "ما لا يغني واحد منهما عن الآخر"، وفي هذا دلالة واضحة على أنهما يشكلان زوجين لا يوجد أحدهما إلا بوجود صاحبه. ويستحضر سيبويه إلى جانبهما عنصر المتكلم فيقول: "ولا يجد المتكلم منه بدا". ويعيد تأكيداً عن احتياج المتكلم لا الكلام في "باب كان وأخواتها"، يقول: "حالك في الاحتياج إلى الآخر هاهنا كحالك في الاحتياج إليه ثمة."¹⁶ (سيبويه 1408هـ / 1988م)

إنّ باب الإسناد هو باب ناظم للعلاقات التركيبية في اللسان العربي، وهو عند سيبويه يعدّ أحد أسس اكتمال العملية التواصلية في بعدها التداولي لتوقف تمام الفائدة عليه من جهة، ولحاجة المخاطب في وضعه الانتظاري لإعلامه بما تتوقف عليه الفائدة¹⁷ (إدريس مقبول، 2006م)، يقول سيبويه: "فإذا قلت: كان حليماً فإنما ينتظر أن تعرفه صاحب الصفة."¹⁸ (إدريس مقبول 2006م) إنّ شرط الإسناد أن يكون عن معروف، أي ما يعرفه المخاطب، كما أنّه حتى في الحالات الاستخبارية يقع على جزء من معرفة المستخبرين يقول سيبويه: "لأنه إنما تسأله عن خبر من هو معروف عنده كما حدثته عن خبر

من هو معروف عندك، فالمعروف هو المبدوء به.¹⁹ (سيبويه، 1408هـ / 1988م)

4.2 التجوز والاتساع: يعتبر كتاب سيبويه "عملا تأسيسيا لتداولية يمكن أن نصطلح عليها بتداولية الاتساع والتجوز، هذه التداولية التي رصدها وتتبعها عبر عدد غير قليل من أبوابه وفصوله ليؤكد الطابع المرن والمتطور للغة وليقول بطريقة غير مباشرة أنّ المستعمل للغة له من حقوق التصرف فيها ما لا يملك النحويّ معه القدرة على تقييده وتتبعه واستقصاء أفراد كلامه. فهو (أي المتكلم) دائم التصرف في الألفاظ خدمة لما يقصده من المعاني التي تتنوع بحسب الأحوال والمقامات وسياقات التخاطب.²⁰ (إدريس مقبول، 2006م)

وسيبويه لم يكن "يتّجه إلى إحكام القواعد وضبطها بالطرق المعهودة وإنّما كان همّه إبراز الخصوصيات التداولية للغة العربية، وإبراز مجازات العرب في تخاطبها، وكيف كان هؤلاء القوم يصلون بلغتهم في الحركة والهدأة و التخیل والتعلّق".²¹ (عبد العزيز احميد، 2003م)

والاتساع لم يضع له سيبويه تعريفا يضبط حدوده، ويوضح دلالاته ولكن يمكن القول أنّ "المصطلح متعدّد الدلالة، يستقطب جملة من الطرق في القول يوحد بينها خروجها عن الأصول النظرية التي تؤسّس عملية تأليف الكلام المطلق، ويدلّ به على ممارسات تراعي إرادة المتكلم وقصده وأكثر من البنية العقلية المجردة التي استخرجها النحاة".²² (حمادي صمود، 1994م)

إنّ تداوليات التجوز والاتساع هي عين نحو سيبويه، يرجعان إلى مفهوم الحرية وضابط الاستعمال.

5.3 الاستعمال: إن استعمال (usage) يرتبط في التداوليات الحديثة بفلسفة أكسفورد. ونظرية الاستعمال تمثّل صورتين:²³ (عزمي إسلام 1985م) -الأولى ترجع الاستعمال إلى نوع من الاتفاق أو الاصطلاح، وتسمى بنظرية الاستعمال الاتفاقي (theory Conventionneluse).

-الثانية ترد الاستعمال إلى مجموعة من الضوابط والقواعد، وتسمى بنظرية قواعد الاستعمال (Roules of use theory).

وكلاهما مستفاد من نظر فيزجنتشتين في فلسفة اللغة. ففيزجنتشتين ذهب في فلسفته إلى "أنّه لكي يمكننا أن نتعرّف على اللغة والعلامات، يجب علينا أن نضع في اعتبارنا طريقة استعمالها استعمالاً ذا معنى".²⁴ (لودفيج فيزجنتشتين 1968م) بمعنى أنّ الاستعمال التركيبي ينتج الاستعمال الدلالي والعكس صحيح.

والمتعمّن في الكتاب يلاحظ أنّ سيبويه "يتبنى نظرة فعلية للغة من حيث هي استعمال فعلي للمتكلّم العربي، وليست نظاماً مفترضاً لا علاقة له بالتحقق الفعلي".²⁵ (هنوش عبد الجليل، 1416هـ/1993م) فقد فرّق بين القاعدة و الاستعمال اللّغوي الفعلي: "و هذا تمثيل، و لم يتكلّم به".²⁶ (سيبويه 1408هـ/1988م) و "هذا تمثيل، و لكنّه لم يستعمل في الكلام".²⁷ (سيبويه 1408هـ/1988م)

وفي نفس السياق تقول الباحثة فائزة تقرشة: "وسيبويه تبني هذه النظرة الفعلية للغة كونها استعمالاً فعلياً للمتكلّم العربي حسب ما يفرضه النظام اللّغوي المجرد المحقق فعلياً بآليات التداول الممارسة".²⁸ (فائزة تقرشة، 2007م)

فقد انحاز سيبويه إلى واقع الاستعمال اللّغوي واحتقّى به حين تعارض مع خطاب التقعيد النحوي مقررًا أنّ الأحكام إنّما تجري على كلام العرب، وذلك لم يمنع الرجل أن يكون معيارياً غالباً، نائياً عن الواقع اللّغوي منفصلاً عنه وغير قانع به، بل سالكا مسالك التقدير والحذف والتعليل والافتراض حتى تستقيم وجهتا الاستعمال والتقعيد وتستويا.²⁹ (أحمد سليمان ياقوت، 2000م)

وقد أشار باحث آخر إلى أنّ سيبويه خبر ذلك المنحى الوظيفي وزكّنه حين لم يستقم معيار الصلاحية والقبول عنده بغير مطابقة معايير الاستعمال اللّغوي

وشروطه، فيقول: "وسيبيويه قد استند في أحكامه إلى بنية لسانية متينة تعي الفارق بين مدلول اللفظ وبين منطق استعماله وإفادته داخل الخطاب." ³⁰ (عبد الرحمن الحاج صالح، 1993م) فسيبيويه لم يكن صاحب نظرة تقليدية إلى اللغة، بل إنّ التععيد النحوي عنده سار وفق مبادئ الاتجاه التداولي وإجراءاته. فسيبيويه كان شغله اللساني التدقيق في المستعمل وغير المستعمل من الكلام، والبناء عليهما، حيث الاستعمال عنده وظيفة للمتكلم وامتيار لجماعة المتكلمين، وهو تطبيق لأسس معيّنة عند المتكلم.

3. مبادئ التداولية عند سيبويه

1.3 الأفعال الكلامية: تتدرج ظاهرة الأفعال الكلامية ضمن "علم المعاني" ويعرف «السكاكي» هذا الأخير بقوله: "هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام، على ما يقتضيه الحال ذكره." ³¹ (أبو يعقوب السكاكي، 1983م) معنى هذا أنّ علم المعاني يهتم بالدرجة الأولى بالمعنى في إطار السياق، مثله مثل نظرية أفعال الكلام.

كما تتدرج هذه الظاهرة تحديداً "ضمن الظاهرة الأسلوبية المعنونة: "الخبر والإنشاء" وما يتعلّق بها من قضايا وفروع وتطبيقات، ولذلك تعتبر "نظرية الخبر والإنشاء، "عند العرب من الجانب المعرفي العام، مكافئة لمفهوم "الأفعال الكلامية" "عند المعاصرين." ³² (مسعود صحراوي، 2005م) وقد قسم العرب الكلام إلى أفعال كلامية مباشرة وغير مباشرة.

أشار سيبويه إلى خروج بعض الأساليب الخبرية والإنشائية عن معناها الأصلي إلى معان أخرى، فقال مثلاً: "ولا يجوز أن تقول: ينتهي خيرا له ولا أنتهي خيرا لي؛ لأنك إذا نهيت فأنت ترجّيه إلى أمر، وإذا أخبرت أو استقهمت فأنت لست تريد شيئا من ذلك، إنّما تُعلم خيرا أو تسترشد مُخبِرا." ³³ (سيبيويه

1408هـ/ 1988م)

2.3 السياق: يعد مفهوم السياق من المفاهيم التي أسالت الكثير من الحبر في الفكر العربي، حيث نجد أن العرب قد اهتموا به ودرسوا العناصر المكونة له من جوانبها المختلفة ودورها في توجيه الدلالة لكن بمصطلحات أخرى غير السياق كالمقام والنظم والحال. وقد عرّفه عبد الرحمن الراجحي بأنّه " مجموع الظروف التي تحيط بالكلام"³⁴ (عبد النعيم خليل، 2007م)

إنّ القارئ لكتاب سيبويه يلاحظ في ثناياه ما يسميه التداوليون بالسياق الذي لا نكاد نجده عند من تأخر بعده. ومن الذين أثار انتباههم هذه الخاصية باحثون اشتغلوا على سيبويه منهم الباحث المومني في أطروحته غير أنّ إشارته كانت سريعة وعابرة، يقول: "كثيرا ما استعان سيبويه على توضيح معنى التركيب بوصف الظروف المرافقة للتلفظ بالقول، كوصف الظواهر الصوتية، أو تحديد العلاقة بين المتكلم والمخاطب، أو ذكر أسباب التلفظ بالقول، إلى غير ذلك مما ذكره سيبويه عند دراسته لقضايا الحذف أو تبيان المعاني المختلفة التي تدل عليها الصيغة الصرفية الواحدة بسبب اختلاف المقام"³⁵ (المومني محمد).

ويؤكّد ما جاء به الباحث مومني الدكتور نهاد موسى: "وكنّت نظرت في سياق بحث مختلف في كتاب سيبويه ألتمس فيه هذا العنصر من عناصر التحليل فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفرع إلى السياق والملابسات الخارجيّة وعناصر المقام ليرد ما يعرض في بناء المادة اللغويّة من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طلبا للاطراد المحكم...بل يتّسع في تحليل التراكيب إلى وصف المواقف الاجتماعية التي تستعمل فيها، وما يلبس هذا الاستعمال من حال المخاطب، وحال المتكلم، وموضوع الكلام"³⁶ (نهاد موسى، 1987م).

ثمّ يردف قائلا: "ويعرف سيبويه للجملة حدودها واستقلالها، ولكنّه أيضا يدرك أنّ الجملة جزء من سياق كلامي موصول، ونراه يتجاوز النظرة إليها بذاتها،

ويمدّ بصره إلى ما حولها من عناصر السياق الكلامي، ثمّ نراه يعتدّ بالموقف الكلامي كلا واحداً، فيغتفر حذف أحد العناصر من الجملة إذا كان في سياقها الكلامي دليل عليه³⁷ (نهاد موسى، 1987م).

يقول سيبويه في (هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمراً، ويكون المبني عليه مظهراً): "وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص فقلت: عبد الله وربي، كأنك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله، أو سمعت صوتاً، فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت: زيد وربي."³⁸ (سيبويه، 1408هـ/1988م)، فسيبويه يضعك أولاً في السياق كي تعرف المحذوف في الجملة، لأنّ تقدير المحذوف متوقف على السياق الذي تُحيل صورته المتعددة على معطيات من العالم الخارجي التداولي.

كما اعتنى سيبويه بالسياق الخارجي وما له من أبعاد تداولية في إنتاج الخطاب وفهمه، ورسم خطوطاً هادية في تعلّم العربية وتعليمها، ليخرج النحو العربي على يده إلى آفاق الإبداع الذي يتوافق وسياق الحدث التداولي فتدّ المتكلم بأشكال، وتراكيب مختلفة تتوافق وغايات التخاطب، متجاوزاً بذلك القيود الإعرابية لأواخر الكلم ليصل إلى غاية التواصل³⁹ (أحمد فهد صالح شاهين 2015م).

وأخيراً يمثل الباحث إدريس مقبول لذلك الوعي المتقدم وتلك الفطنة البالغة بقوله: "ولسيبويه إحساس دقيق تجاه اللغة وقوتها التداولية، إذ لا تكاد تمر عليه لفظة أو كلام من فم عربي إلّا وينطلق لتصور سياق هو مقامه حتى يتسنى له توجيهه وفق ما يقتضيه إنجازاه في موضعه ومحلّه."⁴⁰ (إدريس مقبول، 2006م).

3.3 المتكلم والمخاطب: لقد أولت التداوليات الحديثة عناية كبيرة لعنصري المتكلم والمخاطب انطلاقاً من الاعتقاد بأنّ الخطاب يتوجه (من وإلى) أحد الطرفين، وكذا بالنظر إلى طبيعة التفاعل اللساني وغير اللساني الذي يوجه

الكلام ويحدد مساره، فالكل يعلم أنّ الخطاب يفترض وجود مخاطب وقرب المخاطب وانتباه المخاطب، وهي كلها شروط مكانية زمانية شخصية يجب أن تتوافر حتى يمكن للعملية الخطابية أن تتجح.

وسيبويه دائم الاستدعاء لهذين الركنين (المتكلم/ المخاطب) يظهر ذلك في قوله في (هذا باب ما ينتصب من الأسماء التي ليست بصفة ولا مصادر لأنه حال يقع فيه الأمر فينتصب لأنه مفعول به): "والمشافهة لا تكون إلاّ من اثنين"⁴¹ (سيبويه، 1408هـ/1988م). فنحن لا نتكلم إلاّ ونحن اثنان، بل لا نتكلم إلاّ ونحن زوجان، لأنّ الزوجين هما بالذات الاثنان الموجودان، والكلام لا يتحقق إلاّ باثنين موجودين هما (المتكلم) و(المخاطب)⁴² (طه عبد الرحمن 2001م).

جاء في (هذا باب تخبر فيه عن النكرة بنكرة)، في توجيه (ما أحد مثلك) وأشباهه، يقول سيبويه "وإنما حسن الإخبار عن النكرة حيث أردت أن تنفي أن يكون في مثل حاله شيء أو فوقه، لأنّ المخاطب قد يحتاج إلى أن تعلمه مثل هذا"⁴³ (سيبويه، 1408هـ/1988م)، ثم يستطرد في توجيهه لجملة من الأمثلة على معرفة علم المخاطب وعلى حيثيات تداولية ترتكز أساسا على آلية الاستعمال وموافقة المقام: "وإذا قلت: كان رجل ذاهبا، فليس في هذا شيء تعلمه كان جهله، ولو قلت: كان رجل من آل فلان فارسا حسن، لأنّه قد يحتاج إلى أن تعلمه أنّ ذلك في آل فلان وقد يجهله، ولو قلت: كان رجل في قوم عاقلا لم يحسن، لأنه لا يستتكر أن يكون في الدنيا عاقل، وأن يكون من قوم فعلى هذا النحو يحسن ويقبح"⁴⁴ (سيبويه، 1408هـ/1988م)، فها هو سيبويه لا يكاد يعلل إلاّ بما تعلق بالمتكلم والمخاطب من جهة حصول الفائدة أو عدمها.⁴⁵ (سيبويه، 1408هـ/1988م)

فالإفادة مبدأ تداولي أصيل، يقصد به وقوف المخاطب على غرض محدّثه بشكل موثوق فيه، دون لبس أو سوء فهم. وهذا من صميم العمل التداولي، الذي يهدف إلى الوصول بالعملية التبليغيّة إلى أبلغ درجات التمام. وقد شغل مبدأ الإفادة في الخطاب اللغوي مرتبة متقدّمة عند النحاة العرب، في مواضع عدّة -منها التقديم و التأخير و الذكر و الحذف و النفي و الإثبات- تحتاج إلى ضوابط و موجّهات لتكتمل إفادة المخاطب، كما استقرّ عندهم أنّ الالتباس لا يسوغ بوجه من الوجوه لمخالفته الغاية من وضع اللغة.

ففي معرض تعليل سيبويه وتوجيهه لقضية التقديم والتأخير في المبتدأ والخبر مثبتا ومنفيا ومعرفا ومنكرا نجده بعد أن يذكر العلة النحوية "لأنّك لم تجعل الأعراف في موضع الأنكر وهما متكافئان كما تكافأت المعرفتان"⁴⁶ (سيبويه 1408هـ/1988م)، يستطرد معضدا بتوجيه تداولي "ولأنّ المخاطب قد يحتاج إلى علم ما ذكرت لك وقد عرف من تعني بذلك كمعرفتك"⁴⁷ (سيبويه 1408هـ/1988م)، إنها عين المعرفة المشتركة التي نص عليها التداوليون والتي هي شرط من شرائط التواصل بين المتكلم والمخاطب.

ومما يقوّي دعائم الإفادة في الخطاب اللغوي عند سيبويه إجازته الحذف بقرينة علم المخاطب، فنجد "يعرض للحذف بجميع ألوانه: من حذف الجرّ والاسم، سواء كان مضافا أو مضافا إليه، والمبتدأ والخبر، والصفة والموصوف وحذف الفعل سواء كان للإغراء أو التحذير أو التعجب إلى غير ذلك، مراعيّا في هذا الحذف التخفيف على اللسان، و وجود القرينة التي نلمحها في علم المخاطب."⁴⁸ (عبد القادر حسين، 1998م) حيث جاء في (هذا باب الحروف التي تنزل بمنزلة الأمر والنهي لأنّ فيها معنى الأمر والنهي) قول سيبويه: "وسألت الخليل عن قوله جل ذكره ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾"⁴⁹ (سورة الزمر، 73) أين جوابها؟ وعن قوله جل وعلى ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ﴾"⁵⁰ (سورة البقرة، 165)، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾"⁵¹ (سورة

الأنعام، 27)، فقال: إنّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر [الجواب] في كلامهم لعلم المخبر به لأي شيء وضع هذا الكلام⁵² (سيبويه 1408هـ/1988م).

إنّ الغالب على المتكلم ألا يذكر في كلامه إلا ما كان يعلم أن المستمع يقول الباحث عبد السلام المسدي مشيراً إلى قانون التناسب العكسي في تداوليات الحذف عند سيبويه: "لا يمكن للباحث أن يغفل عن نباهة شيخ النحو العربي في هذا المقام، فقد حاول صاحب الكتاب تفسير المظاهر الطارئة على بنية التراكيب النحوية في اللغة، ولما سعى إلى تحليلها انتبه رأساً إلى ما لجهاز التحاور من سيطرة على نواميس الحدث التخاطبي، حتى أنّ مبدأ التفاهم قد غدا بمنزلة المعيار الضابط لطاقة الاختزال أو التصريح في الكلام، فيكون له التأثير نفسه في تحديد أبعاد الشمول والاستيعاب عند تقدير الظاهرة اللغوية كلياً، والذي يعنينا من كل استقراءات سيبويه في هذا المضمار، ونحن على مسار تحديد الطاقة الاستيعابية في اللغة، هو استنباطه لقانون التناسب العكسي بين طاقة التصريح في الكلام وعلم السامع بمضمون الرسالة الدلالية، وبموجبه تكون الطاقة الاختزالية ممكنة بقدر ما يكون السامع مستطلعاً لمضمونها الخبري، وبالاستتباع المنطقي نفسه يتعذر التعويل على الطاقة الإيحائية في اللغة إن لم يتعين الحد الأدنى من القرائن المفضية إلى إدراك المختزل.⁵³ (عبد السلام المسدي، 1986م).

والمتكلم عند سيبويه ينبغي له ألاّ يستخدم تراكيب مخالفة لما اعتادته الجماعة، وإلاّ فهو "ملغز تارك لكلام الناس الذي يسبق إلى أفئدتهم.⁵⁴ (سيبويه، 1408هـ/1988م) فسيبويه يلزم على المتكلم تجنب الإبهام واللبس.

4.3 القصديّة: ومفهوم القصد أصيل في الدراسات التداوليّة بوصفه الغرض الذي يبتغيه المتكلم من الخطاب، والفائدة التي يرجو إبلاغها للمخاطب، فلن

يكون هناك نص، ولا خطاب دون قصد، وهذا نفسه ما يركز عليه المعاصرون حين يرفعون من شأن القصدية.

و قد اعتنى سيبويه بتحري مقاصد المتكلمين و ما يكتنفها من قرائن، و لم يفته "أنَّ أيَّ استعمال يُتكلَّم به إنّما يلوّح عن قصدية يرومها من ذلك الاستعمال".⁵⁵ (بان صالح مهدي الخفاجي، 2011م) فالكلام لا يكون كلاماً حقاً " حتى تحصل من الناطق إرادة توجيهه إلى غيره، وما لم تحصل منه هذه الإرادة، فلا يمكن أن يعدّ متكلماً حقاً، حتى ولو صادف ما نطق به حضور من يتلقفه، لأنّ المتلقف لا يكون مستمعا حقاً حتى يكون قد ألقى إليه بما يتلقف مقصوداً بمضمونه هو أو مقصوداً به غيره، بوصفه واسطة فيه أو قل متى يدرك رتبة المتلقي".⁵⁶ (طه عبد الرحمن، 1998م).

جاء في (باب مجرى النعت على المنعوت والشريك على الشريك والبدل على المبدل منه وما أشبه ذلك)، توجيه لأحد التراكيب على الغلط في القصد حين يتكلم الإنسان ليقول شيئاً يخالفه لسانه، فيقول شيئاً آخر، قال سيبويه "وكذلك مررت برجل صالح بل طالح، ولكنه يجيء على النسيان أو الغلط فيتدارك كلامه لأنه ابتداءً بواجب،"⁵⁷ (سيبويه، 1408هـ/1988م) فسيبويه لما وجد أمامه نطقاً لا يساير قواعد اللغة، إذ لابد للجملة التي تحتوي على (بل) أن تبدأ بنفي، و الجملة التي ذكرها خالية من النفي، وذلك يحدث حين يخطئ الإنسان ثم يتدارك خطأه، وهذا يقع في حياتنا العادية اليومية، وعليه يكون تعليله للمثال على القصد تداولياً وليس نحوياً.

ويورد سيبويه تعليلاً وتوجيهاً دلالياً وتداولياً بالقصد وتتمام الفائدة في (هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر)، ويقصد به باب (حسب وظن وأخواتها) حيث يشرح كلام العرب:

-حَسِبَ عَبْدُ اللَّهِ زَيْدًا بَكْرًا.

-ظَنَّ عَمْرُو خَالِدًا أَبَاكَ.

-خَالَ عَبْدُ اللَّهِ زَيْدًا أَخَاكَ. بقوله: "وإنما منعك أن تقتصر على أحد المفعولين هاهنا أنك إنما أردت أن تبين ما استقر عندك من حال المفعول الأول، يقينا أو شكاً، وذكرت الأول لتعلم الذي تضيف إليه ما استقر له عندك من هو: إنما ذكرت ظننت ونحوه لتجعل خبر المفعول الأول يقينا أو شكاً، ولم ترد أن تجعل الأول فيه الشك أو تقيم عليه في اليقين،" ⁵⁸ (سيبويه 1408هـ/1988م)

وهكذا فالتعليل بالقصد إلى الشك أو اليقين هو الأساس الذي يقيم عليه سيبويه نظره النحوي، فأعمال الشك أو اليقين هي قصدية تداولية.

5.3 الحجاج: يعد الحجاج عملية تواصلية قاعدتها الحجة المنطقية وهدفها إقناع الطرف الآخر. وهو "تقنية تداولية، ترتبط بمكونات الخطاب، وتتعلق بطرفيه، وغايتها تأثيرية، وهدفها إقناعي، والحجاج يمثل الطريقة التي يقدم المتكلم فيها ملفوظه، ولا يتوقف على مهارات المتكلم اللغوية وحسب وإنما يحتاج توظيف أنساق ثقافية متعددة" ⁵⁹ (محمد إسماعيل بصل، 2018م)

سلك سيبويه مسلكاً حجاجياً في مواضع عديدة في كتابه من أمثلة ذلك استخدامه الحجج والأدلة مثل قوله: "ألا ترى أنك لو قلت: زيد فمنطلق لم يستقم؛ فهو دليل على أنه لا يجوز أن يكون مبتدأ" ⁶⁰ (سيبويه، 1408هـ/1988م) حيث اعتمد على التفكير العقلي والبرهان والحجة لرد الرأي برأي أقوى منه، والحجة بحجة أبلغ منها.

4. خاتمة: إنَّ الباحث عن فكرة التداولية في كتاب سيبويه يلاحظ أن جل مبادئ التداولية الحديثة حاضرة فيه، ولو بمصطلحات مغايرة أحياناً أو غير منضبطة أحياناً أخرى، فعلى الرغم من عدم تأصيله لمصطلح التداولية بلفظه اهتم بتتبع سياقات الاستعمال اللغوي الدائرة في مستوى التخاطب الفعلي، وقد

ظهر ذلك في مباحث كثيرة خاصة تلك المتصلة ببابي الخبر والإنشاء واستعمال اللغة.

إنّ وصف سيبويه للغة العربية وتتبعه لدقائقها جعله لا يغفل عن أي وضع من أوضاعها مهما تناهى في الصغر أو الجزئية، وبغض النظر عن نسبة وروده (قلة أو كثرة) ضمن ظواهر اللسان العربي، لذلك وجب على الباحث في كتاب سيبويه أن يمعن النظر والتفتيش ليكتشف الدرر الثمينة التي احتواها فالكتاب يفيض بالعديد من المواضيع التحليلية المميزة، التي تعكس مقدرة سيبويه الواعية وإمكاناته الفاتقة في التحليل والاستنباط.

5. قائمة المصادر والمراجع:

المؤلفات:

- أحمد سليمان ياقوت، الكتاب بين المعيارية والوصفية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 51-58.
- أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إربد الأردن، ط1، 2015.
- إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم كتب الحديث، ط1، 2006.
- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، 1994.
- الزمخشري أبو القاسم جار الله، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، رتبّه وضبطه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1415هـ.
- سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت ط 3، 1408هـ/1988م،
- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس، ط2، 1986م.
- عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة ط1، 1998م.

- عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ط1، 2007م.
- العلولا منيرة بنت سليمان، الإعراب وأثره في ضبط المعنى، دار المعرفة الجامعية.
- ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري أبو محمد، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، 1343 - 1925.

- لودفيج فيزجنشتاين، رسالة منطقية فلسفية، الفقرة 3، 32.
- محمد إسماعيل بصل، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية النظرية الحجاجية في البلاغة الغربية: أعلامها وتقنياتها
- نهاده موسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث دار البشير، عمان، ط2، 1987م.
- أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983.

الدوريات:

- عبد العزيز احميد، المصطلح اللساني في كتاب سيبويه، دراسة في المعجم والأسس المعرفية، أطروحة دكتوراه، أكادير، 2003م.
- المومني محمد، التركيب في كتاب سيبويه، نظام الجملة وأصول التقدير أطروحة دكتوراه مرقونة بخزانة جامعة محمد بن عبد الله بفاس.

المقالات:

- بان صالح مهدي الخفاجي، المتكلم وأثره في بناء القاعدة النحوية في كتاب سيبويه، مجلة الآداب، جامعة بغداد، ع97، 2011م.
- طه عبد الرحمن، الحوار والاختلاف، خصائص وضوابط، ضمن قضايا إسلامية معاصرة، عدد 16-17، 2001.
- عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ديسمبر 1993 عدد2.
- عزمي إسلام، مفهوم المعنى، دراسة تحليلية، الرسالة الحادية والثلاثون الحولية السادسة من حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، 1985م.
- فايزة نقرشة، ظاهرة الاتساع والإيجاز ومقاصدها التداولية عند النحاة العرب الأوائل من خلال كتاب سيبويه، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة-الجزائر، 2007.

المداخلات:

-هنوش عبد الجليل، منهجية سيبويه في البحث اللساني، أعمال ندوة اللغة العربية والبحث اللساني، كلية اللغة العربية بمراكش، عدد6، 1995.

6. الهوامش:

¹-ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري أبو محمد، عيون الأخبار، دار الكتب المصرية، 1925 - 1343/2، 158.

²- سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1408هـ / 1988م، 1/ 25.

³- إدريس مقبول، ينظر: الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم كتب الحديث، ط1، 2006، ص281.

⁴- أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، عالم الكتب الحديث، إريد الأردن، ط1، 2015، ص83.

⁵- العلولا منيرة بنت سليمان، الإعراب وأثره في ضبط المعنى دراسة نحوية قرآنية، دار المعرفة الجامعية بالاسكندرية، 1993م، ص90.

⁶- سورة النساء: 162.

⁷- سيبويه، 2/ 63.

⁸- ينظر: الزمخشري أبو القاسم جار الله، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، رتبّه وضبطه: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1415هـ، 1/ 590.

⁹- سورة المسد: 4

¹⁰- سيبويه، 2/ 70.

¹¹- الكشف، 4/ 10.

¹²- سيبويه، 2/ 153.

¹³- ينظر: سيبويه، 2/ 74/ 75.

¹⁴- سيبويه، 4/ 216، وينظر: 3/ 325، وأيضا 4/ 147.

¹⁵- المصدر نفسه، 1/ 23.

¹⁶- المصدر نفسه، 1/ 45.

- 17- ينظر: إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص352.
- 18- سيبويه، 48/1.
- 19- المصدر نفسه، 48/1.
- 20- إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، ص382-383.
- 21- عبد العزيز احميد، المصطلح اللساني في كتاب سيبويه، دراسة في المعجم والأسس المعرفية، أطروحة دكتوراه، أكادير، 2003، ص74.
- 22- حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس منشورات الجامعة التونسية، 1994، ص101.103.
- 23- ينظر: عزمي إسلام، مفهوم المعنى، دراسة تحليلية، الرسالة الحادية والثلاثون، الحولية السادسة من حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، 1985م.
- 24- لودفيج فيزجنشتين، رسالة منطقية فلسفية، ترجمة: عزمي إسلام، مراجعة وتقديم زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، 1968م، الفقرة 3، 32 ص77.
- 25- هنوش عبد الجليل، منهجية سيبويه في البحث اللساني، أعمال ندوة اللغة العربية والبحث اللساني، مجلة كلية اللغة العربية بمراكش، عدد6، 1416هـ/1993م، ص79.
- 26- سيبويه، 72/1.
- 27- سيبويه، 374/1.
- 28- فايزة نقرشة، ظاهرة الاتساع والإيجاز ومقاصدها التداولية عند النحاة العرب الأوائل من خلال كتاب سيبويه، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة-الجزائر، 2007، ص14.
- 29- ينظر: الكتاب بين المعيارية والوصفية، أحمد سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2000م، ص51-58.

- ³⁰ - عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز، المدرسة العليا للأستاذة في الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، ديسمبر، 1993، عدد2، ص19.
- ³¹ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م، ص161.
- ³² - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص49.
- ³³ - سيبويه، 289/1.
- ³⁴ - عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ط1، 2007م، ص82.
- ³⁵ - المومني محمد، التركيب في كتاب سيبويه، نظام الجملة وأصول التقدير، أطروحة دكتوراه مرقونة بخزانة جامعة محمد بن عبد الله بفاس، ص4-5.
- ³⁶ - نهاد موسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، دار البشير عمان، ط2، 1987م، ص97.
- ³⁷ - نهاد موسى، ص98.
- ³⁸ - سيبويه، 2/130.
- ³⁹ - ينظر أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسات النحوية المعاصرة، ص71.
- ⁴⁰ - ينظر إدريس مقبول، الأسس الإستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ص297.
- ⁴¹ - سيبويه، 1/392.
- ⁴² - ينظر طه عبد الرحمن، الحوار والاختلاف، خصائص وضوابط، ضمن قضايا إسلامية معاصرة، عدد 16-17، 2001، ص240.
- ⁴³ - سيبويه، 2/54.
- ⁴⁴ - المصدر نفسه.
- ⁴⁵ - ينظر أمثلة كثيرة في الكتاب: ج 1/ 283 - 381.
- ج 2/ 345 - 87 - 93 - 114 - 233 - 280 - 294 - 297 - 345.
- ج 3/ 7 - 103 - 104 - 224.
- ⁴⁶ - سيبويه، 2/55.

- 47- المصدر نفسه.
- 48- عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، دار غريب، القاهرة، ط1، 1998م، ص76.
- 49- سورة الزمر: 73.
- 50- سورة البقرة: 165.
- 51- سورة الأنعام: 27.
- 52- سيبيويه، 1/ 103.
- 53- عبد السلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس، ط2، 1986م، ص332.
- 54- سيبيويه، 1/ 308.
- 55- بان صالح مهدي الخفاجي، المتكلم وأثره في بناء القاعدة النحوية في كتاب سيبيويه مجلة الآداب، جامعة بغداد، عدد97، 2011م، 188.
- 56- طه عبد الرحمن، التكوثر العقلي، ص 214.
- 57- سيبيويه، 1/ 434.
- 58- سيبيويه، 1/ 40.
- 59- محمد إسماعيل بصل، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، النظرية الحجاجية في البلاغة الغربية: أعلامها وتقنياتها، ص 266.
- 60- سيبيويه، 1/ 138.